رواية

# صوت الحمير

تأليف
أيمن العتوم

دار ديوان
Dar Diwan

دار ديـــوان
Dar Diwan

| | |
|---|---|
| عنوان الكتاب | صوت الحمير |
| تأليف | أيمن العتوم |
| التصنيف الرئيسي | أدب عربي |
| التصنيف الفرعي | أدب ساخر / قصص عربية |
| رقم الإيداع | 1163/2020 الكويت |
| الترقيم الدولي ISBN | 978-9921-758-18-4 |
| بيانات الفهرسة | 268 ص / 21 سم × 14سم |
| فكرة وتنفيذ | ديوان الإبداع |
| إنتاج | شركة دار ديوان |

**الطبعة الثانية عشرة** **2022**

**جميع الحقوق محفوظة**

**دار ديوان للنشر والتوزيع**

الكويت - شرق - قطعة 5 - شارع أحمد الجابر - برج الجاز - دور 11 - مكتب 33
(+965) 22285440 (+965) 91111474
البريد الإلكتروني: info@dardiwan.com
الموقع الإلكتروني: www.dardiwan.com

**تحذيـر**

**لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر**

**إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار ديوان للنشر والتوزيع**

# الموضوعات

| | |
|---|---|
| مدخل | |
| أنتَ حِمارٌ مُختلف | 6 |
| كيفَ لي أنْ أطلبَ ما ليسَ لي؟! | 16 |
| نحنُ نَتبعُ الرّائحة الّتي لا تضلّ! | 28 |
| لو أنّكَ أطعْتَني من البداية! | 40 |
| الشّيخُ يُهرِمه الشّتاء | 50 |
| بيت الرّبّ لكلّ مَنْ أحبّ | 62 |
| البشر يَنسَون، الحمير لا تَنْسى! | 74 |
| الطّريق قريبةٌ على مَنْ مَضى | 84 |
| لا أعرفَ بالطّريقِ مِنَ الحَمير! | 96 |
| لا أتخلّى عن رفيقي من أجل عينَي امرأةٍ | 112 |
| مَقطوعٌ مِن شَجَرة | 122 |
| حزبُ الحمير؛ يَدُ الله مَعَ الجَماعة | 134 |
| مَنْ وجدَ عِشقَه فلْيؤجّلْ صَلاتَه | 148 |
| وحدكَ مَن تقرّر أنْ تكون عظيمًا أو تافِهًا | 160 |
| حَليبُ الحَمير | 170 |
| الخالِدون من الحمير | 182 |
| الرّأيُ بالرّأي | 192 |
| لُحوم الحمير | 204 |
| ذاكِرةُ الموت | 216 |
| ما نَفْعُ الوَردِ على تابُوت؟! | 224 |
| المَشّاؤون | 236 |
| المَواقف والمُخاطَبات | 246 |
| في الفلسفة | 252 |
| الشُّهب تتساقط | 262 |

# مدخل

كنتُ سأُسمّيها مذكّرات حِمار، أو يوميّات أو ما شابَه... ولكنّ الشّخص الّذي دفعتُ إليه هذه المُذكّرات لكي يُحرّرها ويُدعَى أيمن العتوم كان أشدّ عِنادًا منّا نحن الحمير؛ فأصرّ على أنْ يُسمّيها (صوت الحمير)، مُدّعيًا أنْ أكثر ما يُميّزنا هو الصّوت لا الذّكريات، وأنّنا نُسامح وننسى أسرعَ من البشر، ومع أنّه لم يكنْ على حقٍّ تمامًا إلاّ أنّني قبلتُ؛ لا لشيءٍ إلاّ لكي أشتري قلمَه بسكوتي. ومن نافلة القول إنّ مَهمّة المُحرّر المذكور قد اقتصرت على ضبط الإيقاع اللغوي، أما فيما عدا ذلك فإن أحداث هذه الرواية جميعها قد وقعتْ لي، وهي حقيقيّة حَدّ الخَيال!

**التوقيع**

**أبو صابر**

أنتَ حِمارٌ
مُختلف

وُلِدتُ تحت شجرة سنديان في (سُوف)، القرية الّتي تعانق جبالُها السّماء، وتسيل وديانها بالأنهار الفضّيّة في فصل الشّتاء، الشّتاء هنا قاسٍ وقارس، وعندما لا تكون لي بَرْدعة يكون الشّتاء قاتِلاً.

غـادر أبي بعد أنْ ولدتْني أمّـي بيومَين، من أجل العمل عند أحد الفلاّحين في قرية (سَمّوع). كانوا يقولون إنّها قريةٌ مُمرِعة، وإنّ زرائبها دَفِيئة، وفيها الكثير من الإناث الجميلات. ونسي أبي العهد الّذي قطعه لأمّي ألاّ يتخلّى عنها حتّى لو تخطّفتْه أنياب الكلاب أو نهشتْه مخالب الفقر، ولكنّ الذّكور من الحمير مثل الذّكور من البشر مُستعدّون لأتفه الأسباب أنْ يُقامِروا بمشاعر زوجاتهم دون أيّ شعورٍ بالمسؤوليّة، وأنا أخشى عندما أكبر أنْ أصبح مثلهم!!

ظلّتْ أمّي معي حتّى اشتدّ عُودي، كانت تقول لي: «أنتَ حمار مختلفٌ، وإنّني أرى مخايل الذّكاء تبدو على مُحيّاك الجميل، وإنّني أشعر بأنّه سيكون لكَ شأنٌ عظيمٌ في المستقبل». وكنتُ أطربُ لهذا الكلام. وقد نصحتُ كثيرًا من الحمير عندما كبرتُ أنْ يقولوا لأولادهم مثل هذه الكلمات الجميلة.

وماتت أمّي في صباح يومٍ ربيعيّ، كانت قد استلقتْ من اللّيل، فلمّا نادتْها الشّمس لم تستجبْ، وبكيتُ لموتها كثيرًا.

ولم أعدْ آكل. وصار جسدي هزيلاً، وقرّر صاحبي حتّى يتخلّص منّي أنْ يبيعني إلى الشّيخ عليّ. كان الشّيخ في العَقد السّابع من عمره، وكان إمام المسجد العثماني القديم في (سُوف)، وقد لزم المسجد طَوال حياته، مُذ تخرّج في الأزهر في الأربعينيّات، وانكبّ على العِلم بعد ذلك انكِباب العاشِق حتّى ضَعُفَ بصره. لم يكنْ في سوف من وسيلةٍ للنّقل آنئذٍ إلا الحمير، وكنّا نحن الحمير نحبّ سوف، كانتْ طرقها جميلة، وهواؤُها نقيًّا، وليس فيها إلاّ مطحنة واحدة، وإذا كان الثّلج في الشّتاء، فإنّنا ننام مع أهلها في بيوتهم تحت سقفٍ واحد.

إذًا صِرتُ أنا حمار الشّيخ عليّ الجديد بعد أنْ هَربَ حماره القديم مع أتانٍ أغواها ببعض الكلمات المعسولة. ظلّ الشّيخ بعد هَرَبِ حماره القديم هذا الآنف الذّكر وحيدًا، وكان عليه أنْ يأتي من الجبل العالي ويهبط المُنعجرات الضّيّقة بين أشجار الزّيتون والتّين واللّزّاب والسّنديان والبُطم إلى بطن الوادي حيثُ المسجد، ولمّا كان الشّيخ قد هَرِم، وضعُفتْ قُواه، فإنّه لم يعدْ يذهب للمسجد إلاّ صلوات النّهار، وحزن لذلك أشدّ الحُزن، وضاعفَ حُزنَه هَرَبُ صاحبه القديم، فأصيب بالوحدة والاكتِئاب، ولم تكنْ له زوجة ولا أبناء، ولا أحدَ يدري لماذا لم يتزوّج، وافتقده النّاس في المسجد، فبعثُوا خلفَه، فعلموا أنّ

الشّيخ مثقوب الفؤاد، وقال لهم: «لقد هرمتُ ولم يبقَ لي من مُؤنس، وأنا لا أستطيع المشي إلى المسجد». فقرّروا وقتئذٍ أنْ يشتروا للشّيخ حمارًا فتيًّا قويًّا يستطيع أنْ يحمله ليؤدّي فروضه بدل الحِمار القديم، وهكذا صِرتُ حمار الشّيخ!!

ونظر الشّيخ من نافذة بيته الطّينيّ إلى أصدقائه وهم يسوقونني إليه كما تُساق العَروس إلى زوجها، وشعر بمودّة غامرة، ولم يدرِ مصدر هذه المودّة إنْ كانتْ بسبب رؤيته لأصدقائه أم رؤيته لي، أم لنا معًا، ولكنّني لمّا سألتُ الشّيخ فيما بعد عن أشياء كثيرة، قال لي: إنّه كان مسرورًا بي، وإنّما كانتْ هذه المودّة نابعةً من قلبه لرؤيتي، فقد قال إنّه رأى فِيّ مخايل الذّكاء، وإنّه يتنبّأ لي بمستقبل بديع، وفيما بعدُ أسرّ لي بأنّني كنتُ أشدّ ذكاءً من كلّ الأولاد الّذين علّمهم في كُتّاب القرية في حياته!

هُرِعَ الشّيخ من الباب دون أنْ يلبس قُفطانه ولا أنْ يضع عِمامته فوق رأسه، وكان منكوش الشَّعر، خفيف الثّياب، حافي القدمَين، وفُوجِئ أصدقاؤه بهيئته هذه، وتعجّبوا من خروجه إليهم على هذا النّحو، وكان يفتح ذراعَيه مُستبشِرًا، وهو يضحك، وظنّ الفلاّحون أنّه يضحك لهم، لكنّه لمّا وصلَ إلينا ابتدرني فأخذني بالأحضان، وتجاهل وجود الآخرين وسط صيحات اندِهاشهم واستنكارِهم، وظنّوا أنّ الشّيخ قد جُنّ، وأنّ

الوَحدة والانعِزال والكآبة قد أفقدَتْه عقله، ولكنّهم لم يكونوا يُدركِون أنّه إنسان، وقلبه مُترَع بالأحاسيس، وعانقني الشّيخ بالفعل عناقًا طويلاً، ومَسَّح لحيته البيضاء بعنقي، وشعرتُ تُجاهه بمودّة كبيرة، وأحسستُ أنّني أعرفُ هذا الشّيخ من زمنٍ بعيد، وأنّنا أصدقاء طفولةٍ غِبْنا عن بعضنا فترةً طويلةً ثُمّ التقينا فجأة. وضحك الشّيخ وهو يُعاين جَمالي، ولمعتْ عيناه من شدّة السّرور وهتف: «إنّه حمار جميلٌ، إنّه أجملُ حِمارٍ رأيته في حياتي!». وتأكّد الفلاّحون أنّ صديقهم قد جُنّ. وصاروا يضربون كَفًّا بكفّ وهم يُحَوقِلون، وتركونا وحدنا نُتمّ العناق، وتبادل نظرات الشّوق والهُيام.

وقام الشّيخ فقادني إلى غرفته الخاصّة. كانتْ غرفته طينيّة واطِئة السّقف، في صدرها الدّاخون الّذي يملؤه في الشّتاء بالحطب من أجل الاستدفاء، وعلى الجانب الأيمن فِراشُه، وعند رأسه بعضُ مزاود الطّعام، وعلى الحائط دائم التّقشُّر هناك مسامير مدقوقة بشكلٍ عشوائيّ يعلّق الشّيخ فوقَها بعضَ ثيابه ومُتعلّقاته. وأجال الشّيخ نَظَره في الغرفة، واختار لي الجانب الأيسر منها، مُقابله تمامًا من أجل أنْ يظلّ ينظر إليّ ويُحادثني، وأوقفني دون أنْ يربطني قريبًا من الدّاخون لكي أنعم بالدّفء، ثُمّ حَكّ ذقنه، قبل أنْ يخرج حاسر الرّأس في

البرد إلى الحاكورة، من أجل أنْ يأتي بالمِعلف الّذي كان للحمار الّذي سبقني في خِدمته، ويضعه أمامي، ويقول لي: «كُلْ يا صديقي. صحيح أنّ هذا الشّعير قديم وبارد، ولكنّني أعدك من الغد أنْ آتيك بشعيرٍ جديدٍ من السّوق، لا تقلق، والآن سامِحْني لأنّ هذا أفضل ما لديّ». ومن جديد عرفتُ أنّه إنسان حقيقيّ، وأنّه يشعر بالآخَرين، وأردتُ أنْ أقول له: «إنّه يكفيني بعض الحشائش اليابسة أو الجذوع المقطوعة أو حتّى الشّوك لآكل وأشبع». ولكنّني تراجعتُ لعلمي بأنّ البشر لا يفهمون لغة الحمير، مع أنّ الحمير يفهمون لغة البشر حتّى أولئك الأغبياء منهم!

ونمتُ مع حلول المساء. وقال الشّيخ: «غدًا ستكون أوّل رحلاتنا معًا أيّها الحمار الرّائع إلى المسجد، والآن نَم هنيئًا». واستغرقتُ في النّوم وأنا أحلم بأيّام ورديّة، وفي منتصف اللّيل استيقظتُ على صوتِ الباب، رأيتُ الشّيخ مُشمّرًا عن ساعدَيه في هذا البرد القارس وهو يحمل في يده اليُمنى إبريقًا، كان يبدو أنّه ذاهبٌ إلى الحَمّام الّذي يقع خارج الغرفة في الحاكورة على بُعدِ مئة خُطوةٍ تقريبًا. وعدتُ إلى الغفوة قبل أنْ أستيقظ من جديد على صوت الباب والشّيخ يدخل منه ويضع الإبريق على الأرض، ويُمسّح أكمامه، ويُغطّي ذراعَيه، وهو يرتجف

من البرد، وأسنانه تصطكّ، وأسمع لُهاثه: «أحححححح». وقام الشّيخ عن يميني، مُتوجّهًا إلى القبلة، وفهمتُ أنّه يريد أنْ يقوم اللّيل، وقرأ الشّيخ عليّ الفاتحة، ولم أسمعْها من قبل من صاحبي السّابق. وكان صوتُه شجيًّا وغائمًا ودافِئًا في هذا البرد الشّديد، وشعرتُ بالانجذاب لصوته، ولم يكن الشّيخ يدري أنّني مُستيقظ، وقرأ في الرّكعة الأولى سورةً طويلة حاولتُ أنْ أحفظها فلم أنجح تمامًا لأنّ صوتَه كان غير واضحٍ، فقد جعل البردُ حروفه أقرب إلى الغمغمة منها إلى القراءة الواضحة، وقرأ في الثّانية سورة العَلَق، وسجد في نهايتها فسجدتُ معه. ثُمّ سمعتُه يتوجّه إلى الله بالشُّكر على نعمة هذا الحمار، وكان يبدو أنّه يقصدني، فشعرتُ بالسّعادة، ودعا بصوتٍ سمعتُه: «اللهمّ أَلِنْ رأسَه، وأطِلْ عُمرَه، واملأه حِكمةً، وفقِّهْه في الدّين، وعلّمْه التّأويل». ولم أكنْ أدري إنْ كان يعنيني بهذا الدُّعاء أم يعني أحدًا آخَر! ثُمّ نامَ ونمت.

واستيقظَ الشّيخ على أذان الفجر، واقتربَ منّي ونادَى بصوتٍ حَنون: «قُمْ يا صديقي، إنّ الله يُنادينا». وشعرتُ بالفعل أنّ الله ينادينا. ووقفتُ على أقدامي، ولبس الشّيخ جُبّته الكُحليّة، وعمامته البيضاء المُلتفّة حول الطّربوش الأحمر الّذي لا يبدو منه إلاّ الجزء الأخير، وذلّلتُ ظهري للشّيخ

فركبني بسهولة وهو يقول: «حمار مُطيع. زادك الله من فضله يا صديقي». وأخذتُ الشّيخ وكان الجوّ في الخارج يجرح الخدّ بالسّكّين لشدّة البرد. كان الضّباب قد نزل حتّى لامسَ الأرض، وتخلّل أغصان الأشجار، فصارتْ تبدو وتختفي، وسيول صغيرة من الماء تسير بين الحصى فتُصدر صليلاً لذيذًا. ورأيتُ بعضَ الفلاّحين، ثلاثة أو أربعة يلفّون شماغاتهم على رؤوسهم اتّقاء البرد، ويضعون أيديهم في جيوبهم، ويلبسون جِزَمًا طويلة، وهم يحثّون الخُطى إلى المسجد، وسمعتُ بعضهم: «هذا حمار الشّيخ الجديد». «أرجو ألاّ يكون سببًا في غياب الشّيخ عن المسجد كما فعل حِمارُه السّابق». «ماذا فعل حِمارُه السّابق؟». «لقد هرب». «ولكنْ لماذا؟». «لأنّه حمار». وشعرتُ بالكراهية الطّافحة من قلوب هؤلاء الفلاّحين، وتعجّبتُ كيفَ يذهبون إلى الله وهم يُؤذون خلقَه!

ووقفتُ عند باب المسجد، حيثُ كانتْ هناك مصطبة ترتفع عن الأرض قليلاً عن يمين الباب. وعلى هذه المصطبة تابوت يُحمل فيه الميّت إلى داخل المسجد ليُصلّى عليه، وأمام المصطبة طاولة يُغسّل عليها الميّت. وسأشهد مشاهدَ عديدة من تغسيل الموتى فيما بعد مع تكرار حضوري إلى هُنا! وكان الشّيخ كلّما دخل إلى المسجد أو خرج منه أطال النّظر إلى

التّابوت، وهزّ رأسه وهو يُغمغم: «ما نجا من النّوم فيكَ أحدٌ!».

وأَمَّ الشّيخ المُصلّين، وشعرتُ من جديد بأنّ الرّحمة تتنزّل من هذه الكلمات الّتي يتلوها الشّيخ. لم يكنْ يصلّي في المسجد أكثر من عشرة مُصلّين. أكثرُهم كانوا من الّذين تجاوزوا الخمسين أو السّتّين من أعمارهم، وتساءلتُ: «أين شباب القرية؟».

وجلسَ الشّيخ في المسجد يتلو بعد الصّلاة ما كان يحفظ ويستظهره، وظلّ يقرأ حتّى شممتُ رائحة الشّمس قادمةً من المشرق. حينئذٍ قام الشّيخ فصلّى. ثُمّ دعا، كنتُ أسمعه. ثُمّ قام إلى المكتبة الّتي تملأ واجهة القِبلة كلّها عن يمين المحراب ويساره، فأخذ كتابًا لم أكنْ أعرفُ ما هو، وبدأ يقرأ منه بصوتٍ عالٍ، وكنتُ ما زلتُ يومئذٍ في أوّل الشّباب، فكنتُ أحفظُ النّصّ بمجرّد سماعه من المرّة الأولى، وهكذا حفظتُ على الشّيخ أكثر من ألفَي كتابٍ ورسالةٍ خلال ما يزيدُ عن عشرين سنةً هي مدّة صحبتي له. وكان فَكِهًا في كثيرٍ من الأحيان، ولكنّه كان بذيئًا في بعض الأحيان، بذيئًا جِدًّا. وأطلعني على أسرارٍ لم يُطْلِعْ عليها أحدًا من قبل!

ولمّا فرغ الشّيخ في ذلك اليوم، ذرع وحده بَهو المسجد حتّى إذا صار بقربي، ربّتَ على عنقي، واعتذر منّي قائلاً:

«سامحْني؛ لقد تأخّرتُ عليك». ثُمّ صعد المصطبة وركبني بسهولةٍ وانطلقتُ به فَرِحًا إلى البيت.

# كيفَ لي أنْ أطلبَ
# ما ليسَ لي؟!

وصلنا إلى قرية عِبّين، كان ذلك في شهر كانون الأوّل، حمل الشّيخ عليّ معه كتابًا في الأخلاق لزُهرة بن سعد، كان في الطّريق يُراجِعُ ما سيقوله بصوتٍ عالٍ، فحفظت كلّ ما قال. عرفتُ أنْ ابن سعد هذا كاتبٌ ممتاز، لغته أعجبتْني، على الأقلّ ليس فيها التّقعّر الّذي عند الشيوخ الآخرين. وعلمتُ أنّ الشّيخ سيتحدّث في المسجد عن الأمانة.

هنالك طريقٌ واحدةٌ تربطُ بين سوف وعبّين، تقدّمْنا باتّجاه القرية حالَما عدنا من صلاة الفجر في مسجد سوف القديم، وقرأ الشّيخ بعضَ الآيات، وصلّى الضُّحى، وأفطرتُ أنا على الشّعير الجديد الّذي أحضره الشّيخ من سوق القرية ليلة أمس بعد أنْ وعدني به. كانت الشّمس ما تزال على ضحكتها الأولى، والأرض بـاردة، وضوء الشّمس لا يبعثُ شيئًا من الـدّفء، وانطلقْنا بين الأشجار، كان النّدى لا يزال في فم الأوراق يسقيها ماءه ويُرطّبها، والعُشب الّذي في الطّريق كان يلمع نَداه فينعكس مع ضوء الشّمس على عيوننا فتعشى، ولولا أنّني قويّ البصر حادّ النّظر لأثّر ذلك الانعكاس عليّ كما أثّر على الشّيخ. لم يجفّ الطّين تمامًا من شتاء الأسبوع الفائت، قُرانا

في الشّمال كما حدّثني الشّيخ - وأنا أعلم بهذا الحديث منه - يحبّها الماء كثيرًا، فلا تبرح تفيض به. شممنا رائحة الصّباح. رائحة النّدى. رائحة البُطم. روائح كثيرة زكمتْ أنوفَنا، روائح ساحرة. الورد يُزهر مُبكّرًا هذا العام، إنّه يخدع الرّبيع باستيقاظه المُبكّر في الشّتاء. لكنّ الشّيخ صحّحني؛ هناك ورود تستيقظ في الشّتاء أيضًا.

كان يومَ جمعة، بعضُ الأولاد كان يقفزون كالقرود في ملعب القرية، والطّين يُغطّي ملابسهم، لم أدرِ لماذا لم ينعموا بالنّوم والدّفء في يوم عُطلةٍ كهذا، لكنّ الدُّنيا كانتْ تضحك في ضَحِكاتهم، وتلعب في لَعِبهم، وتتراقصُ كما يتراقَصون، حدّثتُ نفسي: «ماذا عرفتُم من الدُّنيا أيّها الصّغار؟ غدًا ستكبرون وستعرفونها على الحقيقة؛ إنّها أفعى؛ ملمسٌ ليّنٌ وسُمٌّ شديد». وشعرتُ أنّني عجوزٌ حكيمٌ قد عجَمَ الدهر عوده جيّدًا. وقفزت الكرة من الملعب، وضربتْ رأسَ الشّيخ، فآلَمَتْه ألمًا شديدًا، وشعر أنّ الأرضَ تميدُ به، وأطارت الكُرة العِمامة عن رأسِه لولا أنّه تدارَكها بيُمناه، وغضب الشّيخ، وضحك الأولاد، وإذْ ذاك نظر إليهم مُحنقًا، وصرخ: «انتبهوا أيّها الأشقياء، هل

أنتم حمير؟». وغضبتُ أنا، وهتفتُ: «ماذا تقصد أيّها الشّيخ بقولك هل أنتم حمير؟». ورفعتُ مؤخّرتي عاليًا، وهممتُ أنْ أرفس برجليّ الخلفيّتَين في الهَواء، فلمّا ابتدأتُ بذلك اهتزّ الشّيخ من فوقي، وتقلقل، حتّى كاد يسقط، وأفلتَ اللّجامُ من يده، وحاول أنْ يستعيد توازنه بيسراه، فيما كانتْ يُمناه مشغولة بتعديل عِمامته، وعلا ضحك الأطفال لمنظر الشّيخ، فتوقّفتُ أنا عن إكمال الرّفس في الهواء لأحافظ على هيبة الشّيخ، وهدأتُ، وصاح الشّيخ: «ما بالُكَ أيّها الحمار؟». «لماذا تسبّنا أيّها الشّيخ؟». ولا أدري إنْ فهم لغتي أم لا، ولكنّني أوصلتُ له الرّسالة على كلّ حال. وتابعْنا سيرَنا، ووصلنا إلى مسجد القرية في العاشرة صباحًا، كانتْ مئذنة المسجد طويلةٌ جِدًّا، حتّى شعرتُ وأنا أتابعُها ببصري إلى الأعلى أنّها تُعانق السّحاب، وفي ذاك اليوم بالذّات لم تكنْ مرئيّة تمامًا، فشعرتُ بأنّها رمح يطعنُ خاصرة السّحاب، وأنّ السّحاب سوف يسيل ماءً في التّوّ. وأمام المسجد كان الفلاّحون يعرضون بعضَ المحاصيل والأدوات للبيع، وكان هناك فلاّح يصيح على حمارٍ بخمسين قرشًا، وصرختُ في أعماقي: «خمسين قرشًا... ما هذا الثّمنُ

البَخْس؟!». ونويتُ أنْ أمشي إليه وأنْ أعضّه في قَفاه، فنحن نساوي أكثر من هذه القروش الخمسين الزّهيدة، ومشيتُ نحوه بالفعل لأنفّذ فكرتي، والشّيخ يَثنيني جهة المسجد ويعجب من سيري نحو الحمار الآخَر، وظنّ أنّني وجدتُ رفيقًا أتسلّى به عن الشّيخ؛ وليس هذا غريبًا؛ فالبشر أسوأ المخلوقات ظنونًا، وهم يظنّون أنّ الدُّنيا تخلو من الوفاء. وفي منتصف الطّريق تذكّرتُ القصّة الّتي قرأها الشّيخ أمس في تاريخ ابن كثير عن أنّ سيّدنا يوسف باعوه ببعض الدّراهم المعدودة، ووجدتُ في القصّة بعضَ العَزاء، وارتحتُ نفسيًا، وقلتُ: «لستُ أكرمَ على الله من النّبيّ». ولوى الشّيخ عنقي باتّجاه المسجد فطاوعتُه هذه المرّة. وكان الشّيخ لمّا قَلْقَلْتُه ونحن نمرّ بالملعب قد أخرجَ رِيْحًا فانتقضَ وضوؤه، فذهب إلى حمّامات المسجد ليتوضّأ، ومكثتُ أنا بالباب أنتظره، ونظرتُ في الشّارع فرأيتُ بعضَ الكِلاب تذرعه باطمِئنانٍ، يقول البشر إنّ الكلاب وفيّة، صدقوا، ولكنّنا أشدّ وفاءً منها! ورأيتُ على مدى بصري – وبصري حادّ جدًّا بالمناسبة وأرى في اللّيل تمامًا كما أرى في النّهار وليس ذلك إلاّ لنا نحن الحمير – المهمّ؛ رأيتُ أقفاصًا